﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ورودُ العقوبةِ بعدَ البيانِ تسريةٌ لِلصّالحين، ووعيدٌ لِلكافرين

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا "حَكى الكلماتِ الّتي جرَت بينَ نوحٍ وبينَ أولئكَ الكُفّارِ، ذَكَرَ ما إليهِ رَجَعَت عَاقِبةُ تلكَ الوَاقِعَةِ، أمّا في حقِّ نُوحٍ وأصحابِهِ فأمران؛ أحدُهُما: أنّه تعالى نجّاهُم مِنَ الكُفّارِ. الثّاني: أنّهُ جعلَهُم خلائفَ؛ بِمعنى: أنّهُم يَخلُفُونَ مَن هَلَكَ بالغَرَقِ، وأمّا في حقِّ الكُفّارِ فهو أنّهُ تعالى أغرَقَهُم وأهلَكَهُم"[1]، وقَد ذَكَرَ السّياقُ هنا قصّةَ نوحٍ، وهي نموذجٌ مِن قَصصِ الأنبياءِ السّابقين؛ تسليةً للرّسولِ الخاتمِ، عمّا يَتعرَّضُ لهُ مِنَ الشّدائدِ والمكائدِ، وتذكيرًا بعاقبةِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ ﷺ حتّى يَنزجرَ مَن يَحذو حذوَهُم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: (نجو): أصلُ النَّجَاءِ: الانفصَالُ مِنَ الشّيءِ، ومنه: نَجَا فلانٌ مِن فلانٍ وأنجَيتُهُ ونَجَّيتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النّمل: 53]، وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجوَةُ والنَّجَاةُ: المكانُ المُرتفعُ المُنفصلُ بارتفاعِهِ عمّا حولَهُ، وقيلَ: سُمِّي لِكونِهِ نَاجِيًا مِنَ السَّيلِ، وَنَجَّيتُهُ: تركتُهُ بنَجوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/226.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).

2) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: (فلك) أصلٌ يَدُلُّ على استِدَارَةٍ في شَيءٍ. مِن ذَلِكَ فَلَكَةُ المِغزَلِ، سُمِّيَتْ لِاستِدَارَتِها، والفَلَكُ: قِطَعٌ مِنَ الأرضِ مُستَدِيرَةٌ مُرتَفِعَةٌ عَمَّا حَولَهَا. وأمَّا السَّفِينَةُ فَتُسَمَّى فُلْكًا. ويُقَالُ إنَّ الوَاحِدَ والجَمعَ في هَذا الاسمِ سَواءٌ، ولَعَلَّهَا تُسَمَّى فُلْكًا لأنَّها تُدارُ في المَاءِ[1]، والفَلَكُ: مَجرَى الكواكِبِ، وتسميَتُهُ بذلكَ لِكونِهِ كالفُلكِ، قال: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس: 40][2]، والفُلْكُ: بالضَّمِّ: السَّفِينَةُ، تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ، وتَقَعُ على الوَاحِدِ والاثنَينِ والجَمعِ[3].

3) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: (الخلائفُ) جمعُ (خليفة)، ولِكونِهِ مذَّكر المعنى، جُمِعَ على (خلفاء) وإلّا فقياسُهُ (خلائف) كـ (كرائم) إذا (الفعيلة) بالتّاء لا تُجمَعُ على (فعلاء)[4]. خَلَفَ: أصلٌ يدلُّ على أن يَجِيءَ شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[5]، والخِلافةُ: النّيابةُ عنِ الغَيرِ؛ إمّا لِغَيبةِ المَنوبِ عنهُ، وإمّا لِمَوتِهِ، وإمّا لِعَجزِهِ، وإمّا لِتشريفِ المُستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّه أولياءَهُ في الأرضِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [فاطر: 39]، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخُلفاءُ جمعُ خَلِيفٍ، قالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: 26]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: 73][6].

4) ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾: النّذيرُ: المُنذِرُ. والنّذيرُ: الإنذارُ، وأمّا قولُ ابن أحمر:

كَم دُونَ لَيلَى مِنْ تَنُّوفيَّةٍ *** لَمَّاعَةٍ تُنذِرُ فِيهَا النُّذُرْ

فيُقالُ: إنّه جمعُ نَذْرٍ، مثل: رَهْنٍ ورُهُنٍ، ويُقالُ: إنّه جمعُ نذيرٍ، بمعنى مَنذورٍ، مثل قتيلٍ وجديدٍ. وقد نذرتُ للّه كذا[7]، و(نذر) أصلٌ يدلُّ على تَخويفٍ أو تَخَوُّفٍ. منهُ الإنذَارُ: الإبلاغُ، ولَا يَكادُ يَكونُ إلَّا في التَّخويفِ[8]. فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تَخويفٌ، كما أنّ التّبشيرَ إخبارٌ فيه سُرُورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [اللّيل: 14][9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(4) الكفويّ، الكلّيّات: (خلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نذر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(9) الرّاغب، المفردات: (نذر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ استئصالِ المُكذِّبينَ وإغراقِهم، ونجاة المؤمنينَ واستخلافهم

يخبرُ اللّه تعالى عن حالِ قومِ نوحٍ عليه السلام أنّهم "مع هذا المجهودِ وتلكَ المُثابرةِ الّتي بذلَها من أجلِ هدايتِهم، أصرّوا على أن يَستمرُّوا في تكذيبِهِ وعدائِه، فنجَّاهُ اللّه ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ بِه، الرّاكبينَ معَهُ في الفُلكِ، وجعلَهُم عُمَّارًا لِلأرضِ بعدَ هلاكِ الكافرينَ الّذين أغرقَهُمُ الطّوفانُ"(1). فالآيةُ إخبارٌ وتوعُّدٌ لِلمُشركينَ المُكذِّبينَ بالنّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ "وضَربُ المثالِ لَهُم؛ أي: أنتُم بحالِ هؤلاءِ مِنَ التّكذيبِ، فَستكونونَ بحالِهِم مِنَ النِّقمَةِ والتّعذيبِ"(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ (الفاء) في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

القَصصُ القرآنيُّ مَعرِضٌ للحروفِ والألفاظِ والمعاني

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ الدّالّةَ على التّفريعِ؛ لتفريعِ تكذيبِهِم على ما وجَّهَ لَهُم مِنَ الدّعوةِ؛ أي: "تفريع ذكرِ هذهِ الجُملِ على ذكرِ الجُملِ السّابقةِ؛ لأنّ الشّأنَ أن تكونَ لِما بعدَ الفاءِ مُناسَبَةٌ لِما قبلَها تقتضي أن يُذكَرَ بعدَها فَيُؤتَى بالفاءِ، لِلإشارةِ إلى تلكَ المُناسَبَةِ، كقولِهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزّمر: 72]، وإلّا فإنّ تكذيبَ قومِ نُوحٍ حَصَلَ قَبلَ أن يقولَ لَهُم: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ [يونس: 71] الآية؛ لأنّه مَا قالَ لَهُم ذلكَ إلّا وقد رأى منهُم تجهُّمَ دَعوتِهِ"(3).

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

مَن كذَّبَ بآياتِ اللهِ كذّابًا، كانَ الجزاءُ هوانًا عندَ ربِّهِ وعذابًا

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ على استمرارِ تكذيبِهِم وإصرارِهِم عليه؛ أي: "فَأصَرُّوا على مَا هُم عليهِ مِنَ التّكذيبِ، بعدَ ما ألزمَهُمُ الحُجَّةَ، وبيَّنَ لَهُم المَحَجّةَ، وحَقَّقَ أنّ

(1) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/242.

تَوَلِّيَهم لَيسَ له سَببٌ غيرُ التَّمرُّدِ والعِنادِ، فلا جَرَمَ حَقَّت عليهِم كلمةُ العَذابِ"[1]، فكانَ تكذيبُهُم مُتطاوِلًا مُستمرًّا غيرَ مُنقطِعٍ؛ وإنّما دلَّ التّكذيبُ هنا على الإصرارِ والاستمرارِ في العِنادِ؛ "لأنّ السّياقَ دالٌّ على تقدُّمِ تكذيبِهِم لهُ، كما يدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾"[2].

دلالةُ العطف في: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

استمرَّ تكذيبُهُم عنيدًا، حتّى بعدَ أن صارَ الإغراقُ أكيدًا

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ عطفَ النّظمُ الكريمُ نجاةَ نوحٍ ﷺ على تكذيبِهِم بالفاءِ؛ لِلدّلالةِ على أنّ تكذيبَهُم قد استمرَّ إلى وقتِ الإغراقِ والنّجاةِ بعدَهُ، فلمّا كانَ تكذيبُهُم قد طالَ زمانُهُ فيكون الإغراقُ قد حَصَلَ، وتكذيبُهُم حاصلٌ كائنٌ، فالإغراقُ حَصَلَ بعدَ التّكذيبِ المُتجدِّدِ المُستمرِّ.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وفي: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

غلقُ البشرِ أبوابَهُم بالتّكذيبِ، يَتلوهُ مِنَ اللهِ الفرجُ القريبُ

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، دخلَتِ الفاءُ على الفعلَين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ﴾، ودلَّتِ الأولى على التّفريعِ، والثّانيةُ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، والفرقُ بينَ ذلكَ وذاكَ، أنّ التّفريعَ يدُلُّ على ترتيبِ الذّكرِ، فإنّ مَدخولَ الفاءِ التّفريعيّةِ ترتّبَ ذكرُهُ على ما ذُكِرَ قبلَها، أمّا مَدخولُ الفاءِ العاطفةِ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، فإنّه يقتضي أنّه حَدَثَ زمانيًّا بعدَ المذكورِ سَابقًا، فهي ليسَت لِمُجرَّدِ ترتيبِ الذّكرِ، كما أنّ مَدخولَ الفاءِ يقتضي أنّهُ جاءَ عَقِبَ المذكورِ قبلَهُ بلا مُهلَةٍ.

الغرضُ مِن رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدرِ:

ذِكرُ التّكذيبِ صَريحًا بعدَ التّعريضِ، يُفيدُ أنّه سُبحانَهُ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، ألمحَ السّياقُ في قصّةِ نوحٍ ﷺ إلى التّكذيبِ دونَ تصريحٍ مِن قبلُ، ثمّ ذَكَرَ صريحًا هنا في قولِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فكانَ كَرَدِّ العَجُزِ على

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

الصَّدرِ، وقد بَقِيَ التّكذيبُ ديدنَهُم إلى آخرِ مَشهَدٍ في القصّةِ؛ فَذَكَرَ التّكذيبَ هنا للتّصريحِ بهِ بعدَ أن أُشيرَ إليهِ ضِمنًا، ولعلَّهُ صرَّحَ بالتّكذيبِ هنا؛ لأنّه قَرَنَهُ بالنّجاةِ والإغراقِ، فصرَّحَ بعلَّةِ الإغراقِ قطعًا؛ إظهارًا لِعدلِهِ ﷻ.

نكتةُ تقديمِ ذكرِ الإنجاءِ على الإغراق:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ...﴾، قدَّمَ هنا نجاةَ نوحٍ عليه السلام ومَن معَهُ، على هلاكِ المُكذِّبينَ خِلافًا لِلظّاهرِ الّذي يَقتضي أن يُذكرَ الهَلاكُ قبلَ النّجاةِ، فأخَّرَ ذكرَ الإغراقِ "عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ - حَسبَما وَقَعَ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: 94]، وفي غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الكريمةِ - ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المُقدَّمِ، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامعينَ، ولِلإيذانِ بِسبقِ الرّحمةِ الّتي هي مِن مُقتَضَياتِ الرُّبوبيَّةِ على الغَضَبِ الّذي هو مِن مُستَتبعاتِ جرائمِ المُجرمينَ"[1].

سبقَت رحمتُهُ غضبَهُ، فعجَّلَ المَسَرَّةَ، وأخَّرَ العقوبةَ

دلالةُ الإسنادِ في ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾، أسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ تعظيمًا للنّجاةِ، فقولُهُ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ "أي: تَنجيَةً عَظيمَةً بما لَنا مِنَ العَظمةِ الباهرةِ، بسببِ امتثالِهِ لأوامرِنا وصدقِ اعتمادِهِ عَلينا"[2]، والتّعظيمُ مُناسبٌ لهذا المَوضعِ؛ إذ إنّ العذابَ بالإغراقِ، كانَ عظيمًا، فلا بدَّ أن تكونَ النّجاةُ كذلكَ.

العذابُ العظيمُ تناسبُهُ النّجاةُ العظيمةُ

دلالةُ العطفِ في ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ على قولِهِ: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾؛ تشريكًا لِلتّنجيةِ؛ أي: أنجينا مَن كانَ معهُ مِنَ العُقلاءِ وغيرِهِم[3]، فلمّا عَبَّرَ

مَن قيّضَهُمُ اللهُ لِصُحبةِ سعيدٍ، فإنّهُم سعداءُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165 - 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

بصيغةِ التّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ بيّنَ أنّ وجهَ التّعظيمِ تعلُّقُ التّنجيةِ بكثيرٍ مِنَ النّاسِ ومَا حَمَلَ معهُ في الفُلكِ، فالتّعظيمُ كما كانَ مُناسِبًا لكونِ الإغراقِ عظيمًا، كثّرَ مَن أنجاهُم بالعطفِ؛ لبيانِ وجهٍ مِن وجوهِ التّعظيمِ في تلك التّنجيةِ.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

السَّفينةُ ما لها صاحب مِنَ المَراكبِ، والفُلكُ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ دَأبَ النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالسَّفينةِ، عمّا له صاحب مِن تلك المَراكبِ، أمَّا الفُلكُ فباعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، فيُلاحَظُ في القرآنِ الكريمِ أنّ استعمالَ السّفينةِ، جاءَ لِما كانَ لها مالكٌ وصاحبٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، أمّا استعمالُ الفُلكِ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دونَ آخر، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65]، وجاءَ الفُلكُ في مَواضعِ الامتنانِ على العبادِ بتسخيرِهِ لَهُم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾:

صيغةُ الجمعِ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن معنى الاستخلافِ في الأرضِ بصيغةِ الجمعِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ لأنّ مَن ركبَ الفُلكَ مع نوحٍ عليه السلام كانَتِ الأممُ مِن نسلِهِم، فالجمعُ باعتبارِ ذلك، كما لا يَخفى أنّ الجمعَ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ، فالجمعُ "هنا باعتبارِ الّذين معهُ في الفُلكِ، تَفَرَّعَ على كُلِّ زَوجَينِ منهم أمّةٌ"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/243.

بلاغةُ الإطنابِ بجعلِهم خلائفَ، وعدمُ الاكتفاءِ بالنّجاةِ:

نـعـمُ الـلـهِ عـلى المـؤمـنـينَ في المَـلـمَّـات، تَتلاحقُ بالعطاءِ والرَّحمات

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ على ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾؛ إظهارًا لمزيدِ الامتنانِ، وتصريحًا بعظمةِ الإنعامِ وسعتِهِ، فهو إنعامٌ على وجهِ الكمالِ، إذ لم يُنجِهم وحسب، بل مكَّنَهُم وأنعمَ عليهم حتّى صاروا أُممًا. وهذا إطنابٌ بذكرِ مزيدِ الإنعامِ بعدَ الإنعامِ عليهم بالنّجاةِ مِنَ العذابِ، وكلُّ ذلك "لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بشأنِ المُقدَّمِ، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامِعينَ، ولِلإيذانِ بِسَبقِ الرَّحمةِ الّتي هي مِن مُقتضياتِ الرّبوبيّةِ على الغضبِ الّذي هُوَ مِن مُستَتبعاتِ جَرائِمِ المُجرِمينَ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ التّعظيمِ في ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾:

الغرقُ كانَ عذابًا مَـهـولًا، وذلـك يَـتـنـاسَـبُ مع عظمةِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بضميرِ التّعظيمِ، فقال: ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾، ولم يقُلْ: (وأغرقْتُ)؛ لأنّه دلَّ على أنّه إغراقٌ ليسَ كأيِّ إغراقٍ، فإنّ اللّه تعالى العظيمَ هو الّذي أغرقَهُم، وليسَ إغراقًا كما يَحدثُ في العَادةِ، فالتّعبيرُ بنونِ التّعظيمِ يَخلعُ العظمةَ والجلالَ على مَضمونِ المَقولِ.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ عنهُم بما يعرِّفُ علّةَ عذابِهم؛ لإظهارِ عـدلِ الـلـهِ في عقابِهم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن قومِ نوحٍ بالاسمِ الموصولِ؛ إظهارًا لعلّةِ العذابِ المذكورةِ ضمنَ حيّزِ الصّلةِ؛ وذلك لِلتّدليلِ على أنّ الغرقَ كانَ جزاءً وِفاقًا، ولم تظلمْهُمُ القُدرةُ الإلهيّةُ، بتسليطِ ذلكَ عليهم. وقد تأخَّرَ ذِكرُ الإغراقِ عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ، حَسبَما وَقَعَ في هذه الآيةِ؛ " لأنّه هو الأهمُّ في سياقِ صدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وجهين؛ أوّلهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتسليةِ النّبيِّ ﷺ وتسريةِ حُزنِهِ على قومِهِ ومنهُم، وثانيهما: كونُهُ هو الأظهرُ في الحُجّةِ على أنّهما – أي: الوعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

والوعيد – مِنَ اللّه تعالى القادرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يَعتقدُ المُشركونَ المُكذِّبونَ"[1].

دلالةُ الصّلةِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾، دلَّت جملةُ الصّلةِ على رسوخِ الكذبِ بهم، حتّى إنّهُم عُرِفوا بهِ، بحيث إنّه يُطلَقُ عليهم بدلَ أن يُقالَ: قوم نوحٍ، فالكذبُ مُتأصِّلٌ فيهم، راسخٌ في نفوسِهِم، كما يدلُّ على عراقتِهِم بالإصرارِ على التّكذيبِ.

رسـوخُ الـكـذبِ في القلوبِ صفةٌ ثابتةٌ مُتأصِّلةٌ فيهم

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالأمرِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أمرَ تعالى بالنّظرِ إلى عاقبتِهِم، والمرادُ منهُ تعظيمُ ما جرى لهم وتهويلُهُ، كما أنّ فيه تحذيرًا لِمَن أنذرَهُم رسولُ اللّه ﷺ عن نزولِ مثله بهم[2]، فالخطابُ بالأمرِ بالنّظرِ دعوةٌ لِلتَّدبُّرِ والنّظرِ والاعتبارِ، وهي كثيرةٌ في القرآنِ الكريمِ، وهي دعوةٌ عامّةٌ لكلِّ ناظرٍ، وإنّما أُريدَ الاعتبارُ دونَ النّظرِ بالعينِ؛ لأنّهُ لا يمكنُ أن يُنظَرَ إلى ذلك ولا إلى المُنذَرينَ، فهو تعظيمٌ لِمَا جَرَى عليهم، ودلالةٌ على شناعتِهِ[3]، فالغرضُ مِنَ الأمرِ الاعتبارُ.

مَـن نَـظَـرَ في عاقبةِ مَن أنكَر، صَـدَّقَ بالحقِّ، ولم يُنكِرْ

المُخاطَبُ بالأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾، ودلالته:

المُخاطَبُ بفعلِ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، إذا كانَ خاصًّا بالرّسولِ الأكرمِ ﷺ فهو تعظيمٌ لهُ مِن جهةٍ، وتهديدٌ لمعاصريهِ، بأنّهُ سيصيبُهُم ما أصابَ قومَ نوحٍ. ويكونُ خطابًا عامًّا لكلِّ سَامِعٍ، فالآيةُ "مُخاطبةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ يُشارِكُهُ في مَعناها جَميعُ الخَلقِ"[4].

الخطابُ مُوجَّهٌ لِـلـعـالَـمين مِـن خـلالِ مُخاطَبةِ النّبيِّ الأمين

(1) الحسيني، تفسير المنار: 11/378.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

عاقبةُ المُهلَكين في الـدُّهـور، صارَت مَوعظةً لكلِّ العصور

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، جاءَ الأمرُ في النّظمِ الكريمِ بالنّظرِ إلى الكيفيّةِ لا إلى الفعلِ ذاتِهِ، فلم يقُلْ: (فانْظُرْ إلَى عَاقِبَةِ المُنْذَرِين)؛ إشارةً "إلى أنّهُ أهلٌ لأنْ يُبحَثَ عَن شأنِهِ"[1]، فهي عاقبةٌ بالغةُ الشّدّةِ، وبَقِيَ ذِكرُها خالدًا على مرِّ العصورِ، وفيها مِنَ الغرابةِ ما ليسَ في غيرِها.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

السّـيـاقُ في الآيـتـين يـتـلاءمُ مـع حـيـثـيّـاتِـهِ وتداعياتِهِ، بدقّةٍ ومَنطِقٍ

التّشابهُ اللّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]، فقد خصَّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ مِنَ الآيتين المُتشابهتين بخاتمةٍ؛ حيث خُتِمَتِ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وخُتِمَتِ الثّانيةُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾؛ وذلك أنّ الآيةَ في سورةِ يونس بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بالتّسريةِ عن رسولِ اللّه ﷺ ناسبَهُ الإقبالُ عليه بالخطابِ فقالَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أمّا الآيةُ في سورةِ الأعرافِ فقد بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلِّقًا بتصريفِ الآياتِ كما دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]، وكانَ قومُ نوحٍ قد عَمُوا عمّا آتاهُمُ اللّه تعالى مِنَ الآياتِ؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»